أرقى فنون اللصلصة

تحت

قباء الخصخصة

حدثنا ابن عربان قال:

«وَدَّعْتُ أبا العيال في آخر لقاء لنا في مجلس الكرام بمقتضب السلام... حرصاً على حاله المتداعي... ورغبة في إراحته من ألم الذكرى الذي خنق صوته فغص بالكلام... واستأذن بالانصراف قبل أن يصل بنا حديثه إلى ما آل إليه الحال مع صديقه أبي الهول بعد أن صدر بحقه ما صدر من قرارات القمة التي استُدعيَ فيها للمثول أمام القضاء بتهم جل فيها القضاء.

وَدّعْتُ أبا العيال في ذلك اللقاء راجياً أن نلتقي بعد أيام...
لكنني لم أدر عندها أن لقاءنا ذاك كان آخر لقاء لنا في مجلس الكرام...!!
ما كنت أدري عندها أن الأيام ستطول فتبلغ الأشهر والأعوام دون أن أعود للقاء أبي العيال في ذلك المجلس الذي اعتدنا عليه وأنسنا فيه لأعذب السوالف وأحلى الكلام...

فقد أَلَمَّتْ بي وعكة أقعدتني عن موافاة أبي العيال في مجلسنا المعتاد
وما كدت لثوب العافية ـ بفضل الله ـ أعود
حتى نُدبت لخارج الديار... للصندوق الكبير...
أتابع وأغطي بالإعلام الجهود
جهود حقل «الخصخصة» الموعود.
فغرقت هناك في دوامة الندوات والمؤتمرات
واستمعت ولخصت المحاضرات
وأرسلت بآخر الأخبار والتلكسات والبرقيات
وزرت مع الصندوق الكبير كل صغير وكبير من الأمصار
نقلب النظر في أوضاع القطاع العام العتيد
الذي كان ـ قبل ربع قرن من الزمان ـ محط الآمال الكبار في التنمية والإعمار...

فقد صفقت للقطاع العام ـ آنذاك ـ وللتخطيط المركزي كل الأقلام في الصناديق والهيئات المحلية والدولية

وأفردت له الأبحاث والدراسات
وأيدت الاعتماد عليه ـ كوسيلة تكاد تكون وحيدة للتنمية والتقدم ـ كل المنظمات والمحافل الإقليمية والعالمية..
ثم انقلب الحال مع تراكم الديون وسوء الأحوال
فإذا بالأقلام في الصناديق والبنوك والهيئات والمحافل المحلية والإقليمية والدولية تعتبر القطاع العام مسؤول التخلف عن النماء
ومعيق التنمية والرخاء
بعد أن آل جل ذلك القطاع إلى مرتع للفساد ومظهر من مظاهر الضعف وسوء الأداء والركود

فقد غدا القطاع العام معطية النخبة من الصفوة و«تكية» السلطان...
يُغَذّى به الأنصار والأعوان
فتنتفخ الجيوب، وتمتلىء البطون... وتزداد الأرصدة في الخارج تكديساً وتئن الديار نزفاً وإفلاساً...

قال ابن عربان:

«ذهبنا للبلاد السعيدة نتابع كل جديد في عالم تحرير الاقتصاد والنظام الجديد..
وتهنا في شؤون الخصخصة والانفتاح..، وغرقنا في دوامة التعريف والأهداف... الأسلوب والأوصاف..
خصخصة أم خوصصة أم تخصيص
تخصصية أم خصوصية أم تخصيصية
نقل للملكية أم إصلاح للخلل في هيكل الاقتصاد
بيع المال العام بالمزاد...
أم تعديل لنظم دعم استهلاك السلع والعتاد...؟؟
إصلاح الأسعار في ظل التضخم المسعور..
أم سداد للديون بأسهم وحصص رأسمال المؤسسات.. ورهن مستقبل العباد..

اشتد الحوار وطال.. ولم يصل الناس في ذلك إلى قرار

وتداعت سلسلة الانفتاحات دون نظام... وتوالت عمليات بيع المؤسسات بلا أحكام
البعض باع القطاع العام كله واستراح
فغرق في البحبوحة أياماً عاد بعدها للصريخ والنواح...!!
والبعض حول المال العام للدائنين سداداً للديون... فصفقت له الأوساط الدولية وأشرقت وجوه الناصحين...

وظل البعض محتاراً:
هل يُمَلّك العمال بالتقسيط
فيتعرض لضغوط الديون ويتهم بسوء التخطيط
أم ينصاع للنصح والإرشاد...
فيقايض القطاع العام بالديون...
ليغدو بذلك من المقربين..
الذين تفتح أمامهم الأبواب لإطعام الجياع المعذبين
بالمزيد من القروض والديون...!!؟؟

وأردف ابن عربان يقول:

«وفي خضم الصراع.. كنا نلمح في بعض الأحيان، إشارات من بعض الناصحين، يدعون للتروي والأناة في مسألة القطاع العام...
يؤكدون أن الأولوية لسيادة القانون.. والتزام الحاكم والمحكوم... كشرط أوحد للتقدم والنماء
يلحون على ضرورة المساءلة في إدارة المال العام.. قبل قطع الأرزاق وتسريح الأنام...
يتكلمون عن العدالة في الملكية والتوزيع قبل الإنفتاح والتنويع...
يتحدثون عن ضرورة السعي لتوفير الاستقرار والطمأنينة والثقة في اقتصاد الديار قبل سياسات التعويم أو التنويم....
عن ردع الفساد كشرط لازم لسيادة النظام... وإنقاذ العباد

عن الإنتاج والفلاح
قبل فتح مصاريع الإنفتاح
عن كبح جماح الشطط
الذي امتد إليه القطاع العام
باسم البرامج والخطط
عن ضرورة دعم الإنتاج
قبل دعم الاستهلاك
عن إعادة إعمار الريف
ووقف النزيف
نزيف تشييد غابات الاسمنت
في أرجاء المدن الميتة
التي غدت بلا أرجاء أو رجاء

إلا أن مثل تلك الأصوات المخلصة، كانت تتوه في سيل الدعوة الجارف إلى الخصخصة..
فكانت تحذف أو تبتسر من المحاضر
تحجب عن النشر في الدوريات... ويطمس الحديث عنها في المحافل والدوائر...

وتابع ابن عربان حديثه يقول:

«غرقنا في دوامة الأبحاث والندوات شهوراً تجاوزت العام السعيد...
وحضرنا من المؤتمرات... العديد...
ومن الدعوات والمآدب كل طريف فخم وفريد...
وكان ما يزال في برنامج الخصخصة المزيد...
فتجارب الخصخصة في الأمصار من قريب أو بعيد جديرة بالمعاينة والبحث والاستقصاء لتستكمل الفائدة ويعم الخير وينتشر الرخاء...

لذلك قمنا نركب مع برنامج الصندوق الكبير رواحل الجو والبحار... ونقطع

الجبال والأنهار.. نجول من أدنى المعمورة لأقصاها..

بدأنا من جنوب الجنوب حيث التجربة الكبرى من دول اللاتين التي كان لها قصب السبق في الخصخصة وسداد الديون...

دول مهذبة سمعت الكلام وانصاعت للنصح الهمام فكانت على رأس الأمصار المرضي عنها من النظام...
النظام العالمي للأنام.

ثم عرّجنا بعد ذلك على الوسط وفيه الكثير من أقطار الخصخصة وحبك الخطط...
وطرنا بعدها لنشاهد العجب من نمور آسيا النُجب مثال التنمية والنماء...
والتعدد بتعدد الرغائب والأهواء، في مؤسسات النظام العالمي الجديد..
وشركاته من ذوات الأجناس المتعددة والأذرع المتمدمدة...

وما تركنا مصراً أو بلداً شمله التخصيص من بلاد العالم الثالث المسكين إلا زرناه بحثاً واطلاعاً على تجارب للخصخصة تمت باللين باعاً أو بالهمز واللمز انصياعاً...

ووددنا لو اشتمل برنامجنا في الزيارة والاطلاع بعض الدول اللطيفة الظريفة: الاسكندينافية منها مثلاً أو فنلندا.. النمسا أو إيرلندا..
وتساءلنا عن السبب في عدم شمول برنامج الصندوق الكبير مثل هذه الأمصار... وعما إذا كان فيها قطاع عام يخصخص.. أو انفتاح يبهر الأبصار...؟
فقد تناهى إلينا، أن في أمثال هذه الدول الظريفة اللطيفة قطاع خاص سعيد تعقد عليه الآمال يتسابق فيه رجال الأعمال على كسب المال وخدمة الأجيال...
ويقوم فيها ـ إلى جانب القطاع الخاص ـ قطاع عام فعال..
يدعم ويساند..، يؤيد ويعاضد
وينشر الثقة في الاقتصاد ويسعد العباد...

وأن القطاعين العام والخاص يتعايشان وينعمان بالسلام...
ويتسابقان على كسب رضا الأنام...

فاتحنا بذلك مسؤول الصندوق الكبير
رجوناه أن يشمل برنامج الزيارات المديد بعضاً من هذه الأقطار...
علنا نقف منها على ما يفيد
من تعايش بين القطاع الخاص والعام وتضافر الجهود فما كان من المسؤول في الصندوق الكبير إلا أن أفهمنا ـ مختتماً برنامج الزيارات ـ بأن تجارب هذه الأقطار اللطيفة الظريفة المبتلاة بالهدوء والاستقرار... لا تفيد دولنا من العالم الثالث ـ ذات التاريخ المجيد...، التواقة الفوارة للتطور والنماء واستعادة المجد والخلود...
فسكتنا على مضض
وقنعنا من الغنيمة بالإياب
بعد أن طال عن الديار الغياب

واختتم ابن عربان حديثه يقول:

«وما انتهى برنامج الزيارات المشهود إلا قرب نهاية عام آخر انتهى معه بنا الحال إلى شوق للديار شديد..

وكان لي فوق شوقي الشديد للديار... شوق أكيد لسماع ما غبت عنه من حديث أبي العيال الفريد في مجلس الكرام السعيد...

ماذا حل ـ ترى ـ بأبي الهول وبرنامج الاستثمار العتيد...
هل أعيد النظر في قرار المصادرة والتجميد..؟؟
هل أفاد أبو الهول من انفتاح العالم السعيد في كنف النظام العالمي الجديد...؟؟